لأجلها وأجلي

عائشة سلامة

تتدحرج الذكريات وتتعاظم ككرة ثلج، لحظات هنا وأخرى هناك، في طريقها نحو أعماق النفس، اليد المتحركة على الورق تثير القلق، وتستثير الخطوات الأولى، صور من الذاكرة تتراءى واضحة جلية، وأخرى انسحبت طوعاً أو كرهاً لتنزوي في الركن القصيّ علّ العشب المتكدس فوقها يحميها من التدحرج أو الالتقاط.

يمتد البصر وتتفاقم قدرة الكرة على الجريان دون أن تقوى على ضبط سرعتها أو اتجاهها، تنفلت فتصطدم متفجرة عند بوابة البناية الكبيرة؛ بناية الحلم، بناية تتوجه إليها الأنظار، أنظار طفلة لم تكمل عامها السادس، لكنها تملك رغبة مكتملة في أن تكون طالبة، هنا تبدأ الحكاية.

الطفلة الصغيرة التي لم تبلغ السادسة من عمرها بعد، تسير برفقة عمتها في الشارع القريب من المدرسة التي كثرت زيارات العمة لها في الآونة الأخيرة، لتؤمن لتلك الطفلة فرصة الالتحاق بالسنة الدراسية الحالية، مخالفة بذلك القوانين المعمول بها في تلك الفترة. فجأة تصادفهما سيدة لها من الوقار ما يبعث في النفس الرهبة، وتطلق شهقة جعلت تلك الفتاة تختبئ خلف عمتها خوفاً من عيني تلك السيدة التي تحدّق فيها وصوتها يخاطبها قائلاً: «ليش أنت مش بالمدرسة، شو بتعملي هون مع عمتك، يلا ... يلا بسرعة جهزي حالك وع الصف».

تلت هذه العبارة كلمات شكر متلاحقة من العمّة التي سرعت خطواتها وهي تحث الصغيرة على الركض خلفها باتجاه منزل والديها، لم تصبر العمّة حتى تصل الفتاة إلى البيت، بل بدأت بحل ضفيرة شعرها في الطريق، لتصل البيت وتقرع الباب وهي مفرودة الشعر، وخلال دقائق معدودة كانت في حلة جديدة ... المريول الأزرق والأبيض مع ياقة بيضاء، وشعر تزينه شبرات بيضاء، وحقيبة مدرسية كانت في العام الماضي للأخت الكبرى، وبعض من الدفاتر وقلم رصاص ... . على باب غرفة تتوسطها طاولة بالوسط تحيط بها كراسٍ على الجانبين، وقفت الفتاة وسلمتها يد عمتها مع كثير منً القبل لتلك السيدة التي علمت فيما بعد أنها مديرة المدرسة، والتي اقتادتها إلى غرفة في أسفل الدرج ليبدأ يومها الأول في المدرسة بطريقة جعلتها تشعر بالكثير من الارتباك والاغتراب.

هكذا دخلت عالم العلم الواسع، نظرات تبحث في كل شيءٍ عن مثير يرتقي لعالم متخيل، امتداد واسع لواقع أكثر تعقيداً

من الحكايات التي غادرت هذه الأسوار، وجوه كثيرة، وساحات واسعة، صف كبير بألواح تمتد على طول الحائط، وشبابيك صغيرة تلف جانبي الغرفة، ومعلمة كبيرة في السن تراوح في عطائها بين الشدة واللين، مديرة لها عصى مميزة تستخدمها بشكل دائم.

مر عام وأعوام وفي النفس أثر سلبي لموقف ارتسم في نهاية السنة الدراسية الأولى، حيث لم تحظ نتيجتي السنوية بالاستحسان والترحيب عند مقارنتها بنتائج أخواتي، وبقي تحصيلي الدراسي متأرجحاً بين الجيد والمتوسط طوال فترة الدراسة الابتدائية وبداية المرحلة الإعدادية، كنت أحب اللعب كثيراً، ولا أجد المتعة التي أريدها في طريقة العرض وأساليب العقاب المنفّرة.

وبدا يتطور لدي ميل نحو الانعزال والهدوء داخل الصف، والإبحار في عوالم افتراضيه استمرت حتى جاء التغيير المطلق بتزامن مرحلة المراهقة مع اندلاع الانتفاضة الأولى، وبدا التحول يظهر بوضوح، وتفتحت جوانب فكرية جديدة مع تجلي جانب آخر للتعلم، بدا لي أهم مما تحتويه المناهج من سرد لتاريخ دول عربية ما زالت في الكتب المدرسية تعاني من الاستعمار. منهاج خفي برز بكل قوة وساهم في إعادة تشكيل الفكر وتوجيهه، واستثمار طاقات دفينة كافحت من أجل اللحظة، انخراط تدريجي في بعض الفعاليات السياسية على مستوى المدرسة كانت نتائجها متعاكسة. فمن جهة، خلقت دافعية قوية نحو التعلم والقراءة، ومن جهة أخرى، كانت سبباً في الحرمان من التعليم أسبوعين عقاباً على عدم انصياعي لأوامر الوالد بترك النشاطات السياسية التي تجاوزت حدود قبوله.

هذه الفترة من البعد عن الدراسة خلقت إرادة من نوع جديد أمام تصلب الوالد في موقفه، فبدأت مرحلة التعلم الذاتي، والتواصل مع المواد الدراسية من خلال الأخوات، والسعي إلى الفهم وطلب المعلومات، فكانت نقطة تحول جذرية حولت التعليم من شيء يلقن إلى شيء يكتسب بالبحث والتجربة والسعي الحثيث، انطلاقا من رغبة داخلية، وليس فرضاً يتعين عليَّ تحقيقه لإرضاء الآخرين. عودتي مرة أخرى لمقاعد الدراسة كانت مختلفة هذه المرة، أقبلت على التعلم بحب وشغف، وطورت علاقات إيجابية مع المعلمات، وأخذت نتائج التحصيل ترتفع لتصل إلى مستوى لم تصله من قبل.

لكن بمرحلة الانطلاق وما فيها من أمل، اصطدمت بصخرة الواقع دونما انكسار، فقد كانت التجربة السابقة كفيلة بأن تمنحني قدرة على التكيّف مع كل ما هو جديد بطريقة أو بأخرى تهميشاً، دمجاً، تجاوزاً أو انخراطاً، الهدف كان أوضح من أن يطمس، والذهن ما زال يحتضن الفكرة ويغذيها، لقد تمت خطبتي قبل بداية الصف الحادي عشر على شاب من أقاربي، وترتبت على ذلك مهام اجتماعية كان من الممكن أن تنعكس سلباً على التحصيل الدراسي، لكني نجحت في تحييدها وعزل تأثيرها، بل وتحويلها إلى دافع إيجابي ساعدني على تخطي الثانوية العامة بنتيجة جيدة جداً.

نهاية الثانوية شكلت مرحلة جديدة، ترتب عليها الانقطاع عن الدراسة لمدة ست سنوات، لم تكن خالية كلياً من السعي نحو خلق الفرصة المناسبة لمتابعة الحلم، انتسبت للمكتبة العامة، وقرأت العديد من الكتب. ولاحت لي فرصة في محيط العائلة، كان لها دور في ربطي بالتعليم حتى مع غياب الخبرة أو الدراسة، تمثلت هذه الفرصة في محاولتي مساعدة أحد الأطفال الذي كان يعاني من ضعف شديد في التحصيل الدراسي، كان ذلك الطفل في الصف الثاني الأساسي، وكنت أعلم أنه ليس من النوع الذي يمكن أن ينضبط لفترة زمنية طويلة أو يستمر، لاحظت أنه لا يعرف حروف اللغة العربية، وليس لدية القدرة على القراءة، فكان الهم الأكبر أن أعلمه الحروف لننطلق بعد ذلك في بقية المواد، بحثت عن وسيلة مساعدة يمكن أن تعزز التعلم لديه، قررت أن أجرب أسلوب اللعب والقصة عله يحقق فائدة، ودون أي معرفة أو دراية بالأساليب التربوية أو المسميات التي أصفها الآن، توجهت لإحدى المكتبات، وسألت عن بعض الوسائل والألعاب التي من شأنها أن تساعدني، حصلت على حروف اللغة العربية مقرونة بصور، فكل حرف مقترن بصورة، ولكنها على شكل بزل، وبدأت معه بهذا الأسلوب؛ لعبة البحث عن الصورة المناسبة لكل حرف، وصياغة حكاية لكل صورة. على مر الأيام، تمكن من تحقيق استجابة للعبة، وأحرز تقدماً في معرفة الحروف، ولكنة لم يستمر وانقطع عن الحضور.

بعد هذه التجربة عادت الحياة إلى رتابتها لبعض الوقت، ولكن ذلك الهاجس الرافض لتلقي كل ما يمليه المجتمع من أجل الحصول على بعض الميزات لدى المحيطين، دفعني إلى العمل في اتجاه تعلم من نوع آخر، بما أن فكرة إقدام سيدة متزوجة على الالتحاق بالدراسة الجامعية غير مقبولة كثيراً،

فتوجهت إلى التعلم المهني، التحقت بدير للراهبات في مدينة القدس لتعلم مهنة الخياطة، وواظبت عليها لأشهر، ولكن الأقدار شاءت أن لا أستمر، فحمل طال انتظاره يجب عدم المخاطرة به لأي سبب.

توالت السنين بعد ذلك حافلة بالأحداث، ابنتي تكبر وأنا أحلم بواقع مختلف لها ولي، ولا يمكن لهذا الواقع أن يخلق من العدم، ولا يمكن لفكرة استوطنت الذهن أن تتسرب منه بسهولة. أشعر الآن أني كنت كما قال حسين البرغوثي في كتابه الضوء الأزرق «أحيا داخل رأسي»، فقد كان ظاهر حياتي لا يعكس ما يدور في داخلي ويشتعل بفكري.

وجاءت اللحظة أخيراً بعد مسار طويل من الحوار والإقناع على شكل قرار بلغ للعائلة في جو يحتمل الكثير من ردات الفعل المتناقضة مع الحدث، قرار بطرق باب الدراسة الجامعية، بعد انقطاع دام ست سنوات وبواقع مختلف يحمل الكثير من المسؤوليات والتحديات، طفلة لم تبلغ الثالثة من العمر، وبيت، وزوج، وعائلة تراقب على مضض ما ستؤول إليه الأمور.

التحقت بجامعة القدس المفتوحة في العام 1998، واخترت تخصص الاجتماعيات بناء على حب كبير لمادة الجغرافيا، وشوق كبير للانخراط في مهنة التعليم. مرت سنوات الدراسة بالكثير من الصبر والتعاون، وازدياد المسؤوليات، فقد كبرت الأسرة وضمت فرداً جديداً، ومع ذلك كانت نتائجي جيدة جداً، وتصدرت لائحة الشرف للتخصص. وعندما مررت بمادة التربية العملية كان لا بد من التطبيق الميداني للتعليم في المدارس، كانت المدرسة التي اختيرت لي لقضاء أسبوعين من التدريب هي مدرسة الفتاة اللاجئة في مدينة القدس؛ أول احتكاك مباشر مع أجواء المدرسة منذ غادرتها كطالبة، كان للأمر رهبة، ولكن الاستقبال والترحيب اللذين حظيت بهما أزالا عني التوتر والارتباك، توجيهات المديرة والنائبة والنصائح والمتابعة كانت كفيلة بانخراطي في أجواء المدرسة والمعلمات.

على الرغم من أن ماضي السنين ولّد عندي ميل نحو الانعزال، لكن الظروف التي رافقت تدريبي سمحت لي بأن لا أكون متدربة فقط، بل معلمة تتنقل بين الصفوف وتعطي الحصص دون مرافقة من المعلمات في أغلب الأحيان، حيث أن إحدى معلمات الاجتماعيات كانت من مدينة الخليل، وقد تعرضت لبعض الظروف حالت دون وصولها المنتظم للمدرسة، فعملت المديرة على أن أعطي ما لها من حصص، ووجهتني نحو طرق التعامل مع الطالبات وإدارة الصف، كانت شخصيتي قوية بل وصلبة، خلقت مسافة بيني وبين الطالبات من خلال تعاملي الحازم معهن في الأيام الأولى، ولكن دون اللجوء لاستخدام العنف إطلاقاً، كما اكتسبت طرقاً وأساليب تعليمية، كتوظيف الوسائل التعليمية في الوقت المناسب، وأهمية العصف الذهني، وقيادة الطالبات للبحث نحو المعلومات بدلاً من تقديمها بشكل مباشر. كانت فترة غنية ومفيدة جداً ساهمت في تبلور التوجه الإيجابي نحو التعليم، وعززت قدراتي.

قبل نهاية الدراسة الجامعية خضت تجربة التدريس مرة أخرى في مدرسة خاصة لفصل دراسي، من هذه التجربة اكتسبت خبرة عملية لم أكن أتيقنها من قبل، حتى في فترة التدريب، حيث لم يكن مفروضاً عليّ وقتها التقيد بدفتر التحضير –الذي أصبح يخضع للمتابعة اليومية– أو دفتر علامات، و لم أكن مربية صف. في هذه المدرسة، أصبحت هذه المسؤوليات متكاملة وعملية، ودخلت العديد من المفاهيم حيز التطبيق، الأهداف وتصنيفاتها ومستوياتها وفلسفتها، التغذية الراجعة ومساعد الطلاب على الهضم المعرفي، التعزيز والتقييم، والدعم والإسناد، إعداد أوراق العمل والاختبارات، لم

يقتصر التعليم على غرفة الصف، و لم ينحصر دوري كمعلمة في مساعدة الطلاب على التعلم، بل تجاوزها لمتابعتهم في ساحة المدرسة (إن جاز تسميتها كذلك، حيث افتقدت المدرسة لهذا العنصر، واقتصرت الساحات على البهو أمام غرفة المدير وسطح المدرسة) أثناء الاستراحة، ومحاولة توجيههم إلى تعلم أساليب التعامل مع الأصدقاء والتسامح، وابتكار ألعاب جديدة تعوّض عليهم غياب الفرصة لممارسة ألعاب مسلية محبوبة، كاللعب بالكرة ، الذي غيبه عدم وجود الساحات.

نهاية الفصل الدراسي كانت قصة أخرى سببت لي صدمة، ففي المناهج التربوية التي نتعلمها في الدراسة الجامعية لا وجود للعديد من الأعمال الكتابية التي تفرض على المعلم، وتمتص قدراً كبيراً من إقباله على التعليم. من بين هذه الأمور الجداول المدرسية التي كان علينا إعدادها بطريقة يدوية، مع عدم قبول استخدام أنواع حبر الطمس، ما يعني أن أي خطأ يوجب إعادة العمل من البداية، إضافة إلى ضرورة نسخ أسماء الطلاب ليس فقط في سجل العلامات، بل أيضاً في سجل إضافي يحوي كل أسماء الطلاب في المدرسة. خرجت من هذه التجربة في حالة صراع بين ما هو مفروض وما هو متاح، بين ما يجب أن يكون وما هو مطبق على أرض الواقع، هوس العلامات –وتقديمها على بناء شخصية الأطفال وتمكينهم ثقافياً وفكرياً– تملكني طويلاً بعد انتهاء هذه التجربة.

في العام 2002، أنهيت دراستي الجامعية، واستقبلت العائلة طفلاً آخر، ما دفعني لتأجيل فكرة الالتزام بالتدريس في الوقت القريب، ولكن الأمر لم يطل، فمع بداية الفصل الدراسي الثاني من العام نفسه، أرسلت إحدى المدارس الخاصة في القرية في طلبي للعمل بديلة لمعلمة الصف الثاني التي دخلت في أجازة أمومة –الصف الثاني الأساسي في هذه المدرسة هو صف ابنتي– حملت هذه التجربة طابعاً جديداً من حيث المسؤولية والنمو المهني. كان عليَّ أن أدّرس الطلاب جميع المواد باستثناء اللغة الإنجليزية، لم أجد صعوبة في التعامل مع المواد الدراسية لأنني فعلياً مطلعة عليها من خلال تدريسي لابنتي، ولكن كان التحدي الأكبر في خلق جو من التعاون والتفاهم داخل غرفة الصف، التي كان يتعين عليَّ البقاء مع الطلاب فيها حتى الاستراحة، والانتقال من حصة لحصة، فلا وجود لخمس دقائق بين الحصص، لحفظ النظام اللازم لحدوث تعلم فعال، فكان لوضع قواعد عامة يجب على الكل احترامها، دور مهم في ذلك، طورنا نمطاً خاصاً من حيث بداية اليوم وتتابع الفعاليات وتقسيم الأدوار وتوزيع الأنشطة، كان ذلك فعالاً على الرغم من أنه لم يخرج من الأطر التقليدية التي كانت المدرسة حريصة على متابعتها بدقة، فكم أربكتني زيارات مديرة المدرسة وحضورها المتكرر لحصص مختلفة ومتابعتها لدفاتر الطلاب وكتبهم، ولكني لامست منها استحساناً وقبولاً لطبيعة الأداء والتفاعل. مر الوقت سريعاً، وعادت معلمة الصف، وبدل أن أنهي العمل وجدت المديرة تتمسك بوجودي ضمن فريق العمل، وقد تنقلت في المدرسة بين وظيفة معلمة تقوية للطلاب الذين يعانون من ضعف في التحصيل الدراسي، إلى معلمة إشغال، وأخيراً استقر بي الحال للعمل كمساعدة صف لمعلمة اللغة العربية للصف التمهيدي في الروضة التابعة للمدرسة.

الروضة كانت عالم آخر، شقاوات بريئة تحتاج لكم كبير جداً من الاستيعاب والتفاعل واللعب، لم يتوافق ذلك كثيراً مع طبيعتي الصلبة إلى حد ما، ولكني كنت أحاول الاندماج وخلق نوع من التقارب مع هذا العالم الذي يدفعك إلى

استكشاف عالمك قبل عوالمهم، أسئلة كثيرة رافقتني، وأفكار عديدة اشتعلت برأسي بعد هذه التجربة، شعرت بضرورة التغيير ولكني لم أقوَ عليه.

تقدمت بعد هذه التجربة بطلب توظيف لمديرية التربية والتعليم بضواحي القدس، وكنت محظوظة بأن قبلت في العام نفسه، وتم تعييني في مدرسة البنات الثانوية في القرية، تلك المدرسة التي غادرتها طالبة قبل أكثر من 10 سنوات، أعود إليها اليوم معلمةً.

استلمت كتاب التوظيف ورأسي مشتعل بفكرة العودة إلى تلك الباحات والغرف الصفية بمعانيها وذكرياتها المتباينة، دخلت غرفة الإدارة، ودارت بي الأرض دورة كاملة، هذه الغرفة كان الدخول إليها مرتبطاً بارتكاب مخالفة أو تلقي عقاب، وقد كثرت زياراتي لها في مرحلة من مراحلي الدراسية، كنت أريد أن أقترب أكثر من مكتب المديرة، التي استقبلتني وبقية المعلمات بالترحاب، لأرى هل ما زالت عصا البلوط اللامعة في مكانها أم غابت مع الغائبين. بعض زميلات اليوم هن معلماتي بالأمس، لم أستطع مخاطبتهن إلا بالصيغة نفسها التي اعتدت عليها من قبل. وكمعلمة اجتماعيات كان نصابي حافلاً بالحصص المختلفة والتحضيرات المتعددة وكثافة الاختبارات مع الأعداد الكبيرة للطالبات في الشعب المختلفة. مجتمع الطالبات كان شديد التباين في تركيبته، ما فرض نمطاً خاصاً من التعامل معه، فقد طغت سمة الحزم والشدة التي بدأت بها للسيطرة على الصف على أسلوبي في التعاطي مع الطالبات، وباتت سمة ما لبثت أن التصقت بي طوال فترة التدريس، ومع ذلك حاولت أن تكون حصصي غنية ومتنوعة الأساليب، ما يقرب المادة ويسهلها على الطالبات، ومع محدودية ما هو متوفر اعتمدت على بعض الأساليب التعليمية القائمة على العصف الذهني والاستنتاج، والتدرج مع الطالبات تحليلاً وتفسيراً وربطاً بالواقع لدمج المعارف الجديدة في منظومتهن المعرفية وتعزيز ما هو موجود، كانت هناك صعوبة في متابعة أعمال الطالبات مع ضغط الأعمال الكتابية التي شعرت أنها تحولني إلى آلة ناسخة، فقررت أن لا أوليها كبير اهتمام، وأركز على الحصة وتوسيع مدارك الطالبات.

زارتني المديرة وحضرت لي حصة عند الصف الثامن الأساسي في مادة الجغرافيا، وقبل نهاية الحصة ببعض الوقت استأذنت وغادرت الصف مسرعة، شعرت ببعض الخوف من ردة فعلها، وما أن انتهت الحصة حتى أسرعت لمعرفة ما جرى، استوقفتني إحدى المعلمات وأنا أسرع نحو الإدارة وقالت إن المديرة ما أن خرجت من عندي حتى أسرعت لفتح ملفي لتتأكد من سنوات الخبرة، حيث اعتقدت أني أدرّس من سنوات طويلة. كان هذا الموقف بمثابة تشجيع ودافع للمضي قدماً. كنت أشعر، على الرغم مما لدي من قدرة على التدريس، أن هناك مجالاً لما هو أفضل، التزمت بكافة الدورات التدريبية التي قدمتها مديرية التربية، استفدت من بعضها، وكنت مدربة في بعضها، أما الكم الأكبر منها فقد كان تقليدياً لأبعد الحدود، كنت أشعر بدافعية كبيرة غذتها منشورات مركز القطان للبحث والتطوير التربوي، وأهمها مجلة رؤى تربوية التي وصلت إليها منذ العام 2000؛ أي قبل أن أدخل مجال التدريس، فكانت موجهاً إيجابياً جداً دفعني لمحاولة الالتحاق بالدورات التي يقدمها المركز.

في العام 2008، خضت تجربة العمل مع "القطان" من خلال دورة تدريبية حول التاريخ، كانت مفيدة جداً، وانبثق عنها تجربة العمل على أحد المشاريع مع الطلاب، ولكن لم يكتب لهذه التجربة الاستمرار، فقد التحقت بهذا العام بجامعة بيرزيت للحصول على درجة الماجستير في الجغرافيا. وانقطعت عن القيام بأي نشاط إضافي.

قبل ثلاث سنوات كلفتني المديرة بالقيام بمهام أمينة المكتبة، ومنذ ذلك الوقت بدأت أشعر بضرورة التغيير، العودة مرة أخرى إلى الكتب سواء في التعامل أو القراءة، كانت المحرك الأكبر لذلك الشعور، حصص المكتبة المدرجة على البرنامج التي لا ترتبط بمنهاج مقرر ومعد بشكل مسبق، خلقت مساحة من حرية الحركة والعمل مع الطالبات، بدأت أبحث عن أساليب جديدة لتفعيل المكتبة وحصة المكتبة، وكان الحزم والجمود الذي رافق مسيرتي من أهم العوائق في تحقيق ما أريد، وأدركت أنه لا يمكن أن تحدث أي تغيير ما لم تتغير، تخليت عن بعض الشدة وتقربت في السنة الأخيرة أكثر من الطالبات، غيرت نوعية الكتب الموجودة على الرفوف، ودبت الحياة في وفي المكتبة من جديد، قادني بحثي مرة أخرى إلى مركز القطان، وهذه المرة نحو الدراما التي شعرت أنها ستكون نقطة تحول كبيرة في مستقبلي المهني ومستقبل طالباتي الأكاديمي.

مدرسة بنات عناتا الثانوية